التصور التداولي للمقام في مدونات القرن الرابع الهجري النقدية

أ.د بشرى موسى صالح/ قسم اللغة العربية/ كلية التربية/ الجامعة المستنصرية

م.م حيدر إسماعيل عسكر/ قسم اللغة العربية/ كلية التربية/ الجامعة المستنصرية

ABSTRACT

Pragmatic perception of the context in the codes of the fourth century AH

This research is trying to take off from the idea that the place is an important focus of the curriculum pragmatic axes , can benefit from the disclosure of critical perception in the codes of the fourth century AH , based on our conviction that the recruitment method pragmatic in the study of codes of cash that will lift the lesson cash heritage that can cause a change in our view of the traditional critical levels to our heritage

يحاول هذا البحث أن ينطلق من فكرة مفادها أن المقام يشكل محوراً مهماً من محاور المنهج التداولي، يمكن الإفادة منه في الكشف عن التصور النقدي في مدونات القرن الرابع الهجري، انطلاقاً من قناعتنا أن توظيف المنهج التداولي في دراسة المدونات النقدية من شأنه أن يرتقي بالدرس النقدي التراثي إلى مستويات كفيلة بإحداث تغيير في نظرتنا التقليدية لتراثنا النقدي.

مفهوم التداولية :

يقترح الدكتور طه عبد الرحمن المنهج التداولي في تقويم التراث، ودراسته بوصفه منهجاً متكاملاً يتميز بدعامة أساسية تستند إليها نظرتنا في تكامل التراث أطلق عليها (دعوى التداول الأصلي)، ومضمون هذه الدعوى هو الاعتماد على المنهج التداولي (لا سبيل إلى تقويم التراث ما لم يحصل الاستناد إلى مجال تداولي متميز عن غيره من المجالات بأوصاف خاصة ومنضبطة بقواعد محددة يؤدي الإخلال بها إلى آفات تضر بهذه الممارسة)[١] وإن الحديث عن التداولية من حيث النشأة والمفاهيم يفرض الاشارة الى العلاقات القائمة بينها وبين الحقول المختلفة؛ لأنها تشي بانتمائها الى حقول مفاهيمية تضم مستويات متداخلة تمثل بذلك حلقة وصل مهمة بين حقول معرفية عديدة منها: الفلسفة التحليلية، علم النفس المعرفي، علوم التواصل، اللسانيات، علوم اللغة.[٢]

التداولية لغة :

إن الجذر اللغوي (للتداولية) هو الفعل الثلاثي (دَوَلَ)، الدَالُ والوَاوُ واللامُ، يدل على تحول الشيء من مكان إلى آخر، حيث قال أهل اللغة: اِندَالُ القوم، إذا تحولوا من مكان إلى مكان، ومن هذا الباب تَدَاولَ القومُ الشيء بينهم، إذا صار من بعضهم إلى بعض، ويقال: بل الدُولَةُ في المال والدَولَةُ في الحرب، إنما سميت بذلك من قياس الباب لأنه أمر يتداولونه فيتحول من هذا إلى ذاك ومن ذاك إلى هذا .[٣] إن اللفظ "دول" ورد في المعاجم العربية والقرآن الكريم بمعنى الانتقال والتحول، سواء في حال أو مكان أو من شخص إلى آخر مما يقتضي وجود أكثر من طرف واحد في هذا الفعل.

التداولية اصطلاحاً:

يعد الفيلسوف الأمريكي "تشارلز ساندرس بيرس" صاحب فضل في استحداث المصطلح Pragmatic في حين يرجع أول استعمال لهذا المصطلح إلى الفيلسوف: والسيميائي الأمريكي" تشارلز موريس" سنة ١٩٣٨ حيث عرفها مكوناتها، تهتم بدارسة العلاقة بين العلامات ومستعمليها أو مفسريها ، وتحديدها يترتب عن هذه العلامات ويتضح من هذا أن التداولية فرع من السيميائية ، وهذا تعريف واسع يتعدى المجال اللساني إلى السيميائي . [٤] ويعد الدكتور طه عبد الرحمان أول باحث عربي استعمل مصطلح (Pragmatique) يقول: قد وقع اختيارنا منذ عام ١٩٧٠ على مصطلح التداولية مقابلا للمصطلح الغربي (براغماتيقا) لانه يوفي المطلوب حقه ، باعتبار دلالته على معنيين :(الاستعمال) و(التفاعل) معا ، فالتداوليات من الفعل تداول الذي يفيد معنى تناقل الناس وأداروه فيما بينهم ، أو قل معنى (التواصل)، ومعنى (التفاعل)، فيكون التداول تبعاً لذلك جامعاً بين جانبين هما: التواصل والتفاعل .[٥] وقد أسهمت الفلسفة التحليلية وفلاسفة اللغة من أمثال بيرس، وشارل موريس، وكارناب، و(فلاسفة اللغة العادية) لمدرسة أكسفورد من أمثال أوستن، وسيرل في ظهور التيار التداولي .[٦]

وقد أعادت دراسات هؤلاء للغة ديناميتها بشكل جديد بعيدا عن التحليل الفيلولوجي أو البنيوي الخالص أو المنطقي الشكلي ، مستندة في ذلك الى الانجازات التي قدمها المنطق المعاصر مع بداية القرن العشرين ، وقد عدَّ كارناب هذا التيار قاعدة لكل اللسانيات.[٧]

تُعنى التداولية بوصف العلاقات القائمة بين المرسل والمرسل اليه في اطار عملية التواصل ، كما تُعنى بالحدث اللغوي بوصفه تعبيرات مدرجة في عملية التخاطب، وكل هذا يفرض مسبقاً وجود الأبعاد التركيبية، والدلالية للعملية السيميائية، فالأهم في عملية الاتصال هو الشكل الذي يقوم المرسل من خلاله بإفهام المرسل اليه ما يريد إيصاله إليه باللجوء الى سلاسل العلامات.[٨]

تولي التداولية أهمية لعلاقة ثلاثية هي: علاقة العلامات بغيرها من العلامات، وبما تمثل، وبمستعمليها، فالكلام المتبادل بين طرفي عملية التواصل يعد عملاً، ونشاطاً ، وتطبيقاً ، من أجل تحقيق أهداف وغايات ، ومقاصد ، فهو قطب الرحى في الدراسات التداولية وعمودها الفقري. [٩]

لقد اكتسب مصطلح التداولية دلالات عديدة ، ويتضح ذلك من خلال تقري سياقات هذا المصطلح في ضوء المعاني التي يُحيل اليها لفظه؛ إذ إن لكلٍّ بعد من أبعاد التداولية مصدراً انبثق منه، لذلك تعددت تعريفات التداولية، وكان لهذا التعدد أثر في ترجمة التداولية إلى اللغة العربية ، فقد ترجمت إلى الذرائعية، والمقصدية، والمقامية ، والسياقية، والتواصلية، والتداولية أكثرها شيوعاً واستعمالاً ، وأقربها إلى طبيعة البحث فيها، إذ هو منظور فيه إلى (تداول) اللغة بين المبدع والمتلقي الذي يدل على التفاعل الحي بينهما في استعمال اللغة .[١٠] فالتداولية: (مجموعة من البحوث المنطقية اللسانية... وهي كذلك الدراسة التي تُعنى باستعمال اللغة، وتهتم بقضية التلاؤم بين التعابير الرمزية ، والسياقات المرجعية والمقامية الحدثية والبشرية).[١١] وقد رُصد لها تعريف آخر، أنها (تمثل دراسة تهتم باللغة في الخطاب ، وتنظر في الوسميات

الخاص به ، قصد تأكيد طابعه التخاطبي) .[١٢]، وهي (الدراسة أو التخصص الذي يندرج ضمن اللسانيات ، ويهتم أكثر باستعمال اللغة في التواصل) .[١٣]

فالتداولية منهج جديد في حقل الدراسات النقدية تهتم بالانساق التواصلية للخطاب، ومن هنا فإن أشمل تعريف للتداولية هو ما استخلصه الدكتور محمود أحمد نحلة من تعريف (موريس) الذي يشكل الأصل في كل الدراسات التي جاءت بعده ، وهوأن التداولية هي (دراسة اللغة في الاستعمال، أو في التواصل ،لأنه يُشير إلى المعنى ليس شيئاً متأصلاً في الكلمات وحدها ، ولا يرتبط بالمتكلم وحده ، ولا السامع وحده، فصناعة المعنى تتمثل في تداول اللغة بين المتكلم والسامع في سياق محدد(مادي ، واجتماعي ، ولغوي) وصولاً إلى المعنى الكامن في كلام ما)[١٤]

ومن خلال ما سبق من التعريفات نخلص إلى أن مصطلح التداولية يعنى بدراسة اللغة في إطار الاستعمال ، أي في إطار عملية التواصل ، وذلك من خلال الأخذ بعين الاعتبار العلاقة بين العلامات المتواصل بها وبين مكونات العملية التواصلية .

مفهوم التواصل التداولي:

والتواصل هو تبادل أدلة بين ذات مرسلة وذات مستقبلة ، حيث تنطلق الرسالة من الذات الأولى نحو الذات الأخرى، وتقتضي العملية جواباً ضمنياً أو صريحاً عمّا نتحدّث عنه ، الذي هو الأشياء والكائنات، أو بعبارة أشمل موضوعات العالم ، ويتطلب نجاح هذه العملية اشتراك المتكلم والمتلقي في السنن حتى يتم التواصل والتفاهم على الوجه الأكمل كما أراد له المجتمع اللغوي ، كما تقتضي العملية قناة تنقل الرسالة من المتكلم إلى المتلقي .[١٥] وعُرّف التواصل التداولي أيضاً بأنه نقل المعلومات والمعاني والأفكار والمشاعر بواسطة العلامات والإشارات من مرسل إلى متلق ، عبر قناة ما .[١٦]

هذا يعني أن هناك ظواهر لسانية ، وخارج لسانية (تداولية) اجتماعية وثقافية وفكرية التي تحكم إمكانية نقل الأفكار والمعلومات بين ممثلي الخطاب ، كما أن هاته الإمكانية تتم باللغة المنطوقة ، كما تتم بأنظمة سننية أخرى .[١٧]

وللتواصل تعريفات متباينة تبعاً لتباين الإطار المرجعي المستعمل ، فكل حقل معرفي يؤكد على عنصر من عناصر العملية التواصلية دون سواه ، فينظر إلى التواصل في ضوء ما هو مشغول به، وكل باحث ينظر إليه من الجهة التي تحقق الأهداف التي يسعى إلى تحقيقها ؛ لذلك جاءت التداولية لتحقق التكافؤ بين عناصر التواصل وتشكل نسقه العام بقصد التفاعل ، والتأثير المعرفي أو الوجداني بينهم، فالتواصل التداولي يهتم بكلّ أطراف العملية التواصلية ، وبتفاعلها تحديداً، وهذا ما يدعوا إلى الاهتمام بكلّ من المتكلم، والمتلقي، والخطاب، والسياق، والمقام الذي يتم فيه التواصل، وبهذا الفهم يكون التواصل نشاطاً رئيساً يمنح اللغة طابعها التداولي. وتجدر الإشارة إلى أن مصطلح (تواصل) في حدِّ ذاته ما هو إلاّ تحيين حداثي لمفهوم رجراج يدخل في علاقة ترادف واشتراك مع مجموعة من المصطلحات التي تشاركه في الدلالة سواء من حيث الجذر اللغوي أو من حيث الحقل الدلالي وذلك مثل: التواصل، الإيصال، الوصل، الإبلاغ، الإخبار،

التخاطب أو المخاطبة، التحاور أو المحاورة، إذ تستعمل هذه الكلمات في المجال الذي يفيد ربط علاقة معينة بين شيئين. [١٨]

مفهوم المقام :

إنّ النظر إلى التداولية بوصفها علماً يدرس تأثير المقام في معاني ملفوظات الأقوال ، فيشكّل المقام بهذا الوصف أهم المرتكزات التي تقوم عليها عملية التواصل ، فهو نظام له بنية من العناصر غير اللغوية المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالنص الكلامي بهدف بلوغ المعنى المراد .[١٩] وبتعبير آخر هو مجموع الشروط التي تتحكم في عملية إنتاج النص وتلقيه، مع الأخذ بعين الاعتبار الظروف الحضارية والثقافية المحيطة بالنص ، وملابساته الخارجية التي تشتمل على الطبقات المقامية المختلفة ، والمتباينة التي ينجز ضمنها النص ، وتصلح لإحداث التأثير الذي يُنشده المبدع في موقف اتصالي محدّد .[٢٠]

فالمقام يفضي إلى بروز فكرة ربط المقال بالمقام وملاءمته لمقتضى الحال من أجل تحقيق المقاصد ، الأمر الذي يجعل المقام يدخل في سياق التواصل التداولي (بوصفه نسقاً من القيم والإجراءات العملية الرامية إلى إحداث تغيير في الأنساق السلوكية ، والاعتقادية للمتلقي).[٢١]

وربط الدكتور صلاح فضل بين التداولية بوصفها العلم الذي يُعنى بالعلاقة بين بنية النص ، وعناصر الموقف التواصلي المرتبطة به بشكل منظم، مما يطلق عليه سياق النص، إذ ربط بين هذا المفهوم للتداولية، وفكرة (مقتضى الحال)، حيث قال: (ويأتي مفهوم التداولية هذا ليغطي بطريقة منهجية منظمة المساحة التي كان يُشار إليها في البلاغة العربية القديمة بعبارة مقتضى الحال، وهي التي أنتجت المقولة الشهيرة في البلاغة العربية لكل مقام مقال) [٢٢]، فانطلق النقاد في مباحثهم حول فكرة المقام ، وربطها بالتراكيب والصياغة ، فأصبحت مقولة (مقتضى الحال) أو (لكل مقام مقال) ، أشد المقولات ارتباطاً بالتواصل التداولي ، ومعياراً من معايير الجودة والذيوع الشعريين.[٢٣]

وقد جعل ابن طباطبا من موافقة الشعر للحال (المقام) التي ينشأ قول الشعر من أجلها سبباً من أسباب حسن الشعر وقبوله فيقول: (ولحسن الشعر وقبول الفهم إياه علة أخرى ، وهي موافقته للحال التي يُعد معناه لها ، كالمدح في حال المفاخرة ، وحضور من يكبت بإنشاده من الاعداء، ومن يُسر به من الاولياء، وكالهجاء في حالة مباراة المهاجي ، والحط منه ، وتذكر مناقب المفقود عند تأبينه ، والتعزية عنه ، وكالاعتذار والتنصل من الذنب عند سلِّ سخيمة المجنى عليه ، المعتذر إليه ، وكالتحريض على القتال عند التقاء الاقران ، وطلب المغالبة ، وكالغزل والنسيب عند شكوى العاشق ، واهتياج شوقه وحنينه الى من يهواه) .[٢٤]

يُشير هذا النص إلى الوعي النقدي لابن طباطبا بمفهوم المقام ، فالرابط بين عناصر التواصل التداولي هو المقام الذي يحتم على المبدع أن يختار ألفاظه ، وتراكيبه بما يناسب المضمون من جهة ، وحال المتلقي من جهة أخرى ، فلا يتحقق التأثير (حسن الوقع) في المتلقي إلاّ إذا تمت الملاءمة ، والموافقة بين المعاني ومقاماتها مع الإلماع إلى ضرورة حسن الربط بين أطراف العملية التواصلية .

إن التواصل التداولي في تصور ابن طباطبا يكمن في مراعاة الاحوال بين المتخاطبين انطلاقاً من أن التداولية تهتم بجميع شروط الخطاب ، وتعتمد أسلوباً في فهمه ، وإدراكه بدراسة كيفية استعمال اللغة، وشرح سياق الحال والمقام الذي يؤدي فيه المتخاطبون خطابهم ، ومن الاشتراطات التي حرص ابن طباطبا على توجيه المبدع مراعاة الشروط الاجتماعية في الشعر ، وتتجلى هذه المراعاة في بناء النص بناءً يراعي مقام المتلقي ويعني حسن ملاءمة المقال للمقام ، بوصفه معياراً نقدياً يساعد على فهم النص، وتقدير نجاعته إذ يقوم الشاعر بمخاطبة ذات معينة مع مراعاة ذوات أخر ، وفضلاً عن هذا يمكن أن تتم المراعاة عن طريق تزويد المخاطبات الداخلية بمبدأ الإفادة الخارجية الذي يتحقق عن طريق مراعاة المقامات، لذلك يطالب ابن طباطبا الشاعر بمراعاة الظروف المادية والاجتماعية التي يتم في إطارها إنجاز النص (مقتضى الحال الخارجي)، وما يترتب عن ذلك من مخاطبة كل طبقة من الناس على وفق منزلتها الاجتماعية وحظها من الجاه والسلطان وفي هذا الصدد يقول ابن طباطبا على الشاعر: (أن يحضر لبّه عند كلّ مخاطبة ووصف، فيخاطب الملوك بما يستحقونه من جليل المخاطبات، ويتوقى حطها عن مراتبها ، أو أن يخلطها بالعامة، كما يتوقى أن يرفع العامة إلى درجات الملوك ويعد لكل معنى ما يليق به، ولكل طبقة ما يشاكلها حتى تكون الاستفادة من قوله في وضعه الكلام مواضعه أكثر من الاستفادة من قوله في تحسين نسجه وإبداعه ونظمه)[٢٥] ، يكشف هذا النص عن التواصل التداولي الذي يكمن في مراعاة مبدأين تداوليين هما (مبدأ الملاءمة ، ومبدأ التأدب)[٢٦]، وهذان المبدآن التداوليان يحققان الربط الوثيق بين انسجام النص نظماً ونسجاً (المستوى الجمالي)، وبين حال المخَاطَب (المستوى المقامي) للنص، إن هذا التوافق بتصور ابن طباطبا يحقق للنص شعريته ، ويكون الشاعر غاية في الابداع ، وإن الإخلال بأي مستوى منهما يُفقد النص جماليته ومكانته، وقد جعل ابن طباطبا معياراً لكلٍّ مستوى، فالمستوى الجمالي معياره القريحة التي ترتبط بالقدرة الابداعية للشاعر، أو قدرته على التعبير الجمالي، ويتضح هذا المعيار في حديثه عن (الابيات التي زادت قريحة قائليها على عقولهم)[٢٧]، ويعني بذلك الأشعار التي حققت المعيار الجمالي؛ ولكنها أخلت بالمعيار المقامي.

أما المستوى المقامي فمعياره العقل وقد ذكر ابن طباطبا أشعاراً كثيرة، تدل على ارتباط موافقة العقل بالمقام ، فكأن العقل عنده يوجه صاحبه إلى مراعاة ظروف الواقع الخارجي، وحسن الاستجابة لها، الأمر الذي يعني أن العقل يُمثل الشروط التداولية للقول الشعري.

ومن مراعاة مقام المتلقي، وتقدير مقامات الكلام ، وظروفه يُشير ابن طباطبا إلى أن يحترز المبدع في مقام كالمدح ، أو التهنئة بمناسبة سعيدة ، أو ما شابه ذلك ، من إيراد ألفاظ قد تفسد على المتلقي هذه الحالة النفسية التي هو فيها ، وعلى الشاعر ـــ من أجل تحقيق هذه المراعاة ـــ كما يقول ابن طباطبا: (أن يحترز في أشعاره، ومفتتح أقواله مما يُتطير به، أو يُستجفى من الكلام والمخاطبات،كذكر البكاء، ووصف إقفار الديار وتشتُّت الألاّف، ونعي الشباب، وذمِّ الزمان لا سيما في القصائد التي تضمن المدائح، أو التهاني، وتستعمل هذه المعاني في المراثي، ووصف الخطوب الحادثة ؛ فإن الكلام إذا كان مؤسساً على هذا المثال تطير منه سامعه)[٢٨] ، يريد ابن طباطبا في هذا النص أن يضع يد الشاعر على الأشعار التي لم يراعِ فيها

أصحابها اللياقة ولا الذوق الاجتماعي؛ وذلك ليحذر الوقوع فيها فقد جانب الأعشى الصواب في التعامل مع مقام الممدوح في قوله:[٢٩]

ما بُكاءُ الكبيرِ بالأطْلَالِ وسُؤالي وهلْ تَرُدُّ سُؤالي

دِمْنَةٌ قَفْرةٌ تَعَاوَرَهَا الصَّيْـــــــــــــــــــــــــفُ بِرِيحَيْنِ من صَباً وشَمَالِ

وأنكر عبد الملك بن مرون على ذي الرمة قوله :

ما بَالُ عَيْنِكَ مِنهَا الماءُ يَنْسَكِبُ كأَنَّهُ مِن كُلَى مَفْرِيةٍ سَرَبُ

وقد أنكر الفضل بن يحيى البرمكي على أبي نواس قوله :

أرَبْعَ البِلَى إنَّ الخُشُوعَ لَبَادِي عَليك وإنّي لم أخُنْكَ وِدَادي

وهذه الأمثلة التي ذكرها ابن طباطبا تمثل تطبيقات على توجهه النقدي في بيان أهمية المقام في تحقيق التواصل، والمتتبع لنصوص ابن طباطبا النقدية يجدها حافلة بكلّ عناصر التواصل التداولي وخصوصاً عنصر المقام.

والمقام عند قدامة بن جعفر شرط تداولي يعنى بضرورة موافقة أفعال القول لمقتضى الحال والموقف الخاص به، إذ أفاد قدامة من مقولة عمر بن الخطاب في وصف شعر زهير بن أبي سلمى، إذ قال: (إنه لم يكن يمدح الرجل إلاّ بما يكون للرجال، فإن في هذا القول، إذا فُهِم وعُمِل به، منفعة عامة، وهي العلم بأنه إذا كان الواجب أن لا يمدح الرجال إلاّ بما يكون لهم وفيهم ، فكذا يجب أن لا يُمدح شيء غيرهم إلاّ بما يكون له وفيه ، وبما يليق به ، ولا ينافره).[٣٠]

هذا النص يُشير إلى تقسيم المدح على أقسام يوزعها على الممدوحين من أصناف الناس بحسب مقامهم، ومكانتهم الاجتماعية (مدائح الرجال تنقسم أقساماً بحسب الممدوحين من أصناف الناس في الارتفاع والاتضاع، وضروب الصناعات، والتبدّي والتحضر)[٣١]. هذا التقسيم للمدائح يدخل تحت مقولة (لكل مقام مقال)، إذ عمد قدامة إلى تحقيق شرط المقام في تداول المدائح هذا الشرط الذي يقضي بالتوافق بين بنية النص وعناصر الموقف التواصلي ، وفي حال إصابتها (المدائح)، وقبولها (المتلقي)، تعدُّ فاعلة في تغيير مواقف التواصل.

ومن الأمثلة التي حققت الترابط والانسجام ، ومراعاتها مقام المتلقي قول النابغة الذُّبيانيّ في مدح النعمان بن المنذر :[٣٢]

ألمْ تَرَ أنَّ الله أعْطَاكَ سُورَةً تَرَى كُلَّ مَلْكٍ دُونَـهَا يَتَذَبْذبُ

بأنَّكَ شَمْسٌ والمُلُوكُ كَوَاكِبٌ إذا طَلَعَتْ لَم يَبدُ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ

فقد أصاب الوجه المطلوب في وصف الملوك بتعبير قدامة .

وربط النقاد عمود الشعر بالمقام بوصفه المقاربة التداولية الحاضرة في كل الخطابات النقدية ، فعناصر عمود الشعر تمثل شروط تداولية المقام اهتدى إليها النقاد لضبط الاستعمال الشعري في مبدأين : الوقع والإفهام .[٣٣]

يمثل كتاب الموازنة تطبيقاً عملياً لعناصر عمود الشعر، إذ ربط الآمدي عناصره الفنية بواقع الحياة العربية ، فالشعر الجيد هو ما جاء موافقاً لطبقات المتلقين ، ومقامهم الاجتماعي، فيصور الشاعر ما أراد التعبير عنه من المعاني تصويراً مطابقاً لما عليه، فالوصف لا يأتي إلاّ لمطابقة الكلام لمقتضى الحال، وعليه أن يورد من المعاني اللائقة لذلك مقدار ما يناسب طبع المخاطب، فمثلاً إذا أراد الشاعر أن يمدح أو يذم أو يهجو، فلكل معنى من هذه المعاني ألفاظ تشاكلها فتحسن فيها، وتقبح في غيرها ، ومن هنا يأتي القول بربط الكلام بالمقام ، أي وضع الألفاظ في مواضعها المناسبة لها مراعياً حال السامع. ويرى الآمدي أن أبا تمام أخل في كثير من المواضع بشرط المقام حتى أشكل شعره ، وخالف العرف المستعمل في الوصف .

تشكل رؤية أبي هلال للمقام من الملامح المهمة في ربط البلاغة بالاتصال في الدرس البلاغي والنقدي القديم، إذ وضع المتلقي ضمن دائرة التواصل بوصفه العنصر الأساسي في فهم النص، لذلك يشكل المبدع نصه على وفق ثقافة المتلقي ولتوضيح فكرة المقام انطلق أبو هلال من أفكار بشر بن المعتمر الذي يقول: (ينبغي أن تعرف أقدار المعاني ، فتوازن بينها وبين أقدار المستمعين، وبين أقدار الحالات، فتجعل لكلٍّ طبقة من ذلك كلاماً، ولكلٍّ حال مقاماً، حتى تقسّم أقدار المعاني على أقدار المقامات ، وأقدار المستمعين على أقدار الحالات).[٣٤]

هذا النص يحدد العلاقة التواصلية بين المبدع ، والمتلقي، والسياق الذي يقدر فيه النص، إذ يركز النص على مبدأ المناسبة ، الذي يشكل المعيار الضابط في تعيين المقامات من جهة ، وضرورة انتقاء المعاني (المضمون) المناسبة التي تلاءم المتلقي بحسب ما تقتضيه قدراته، فتحقيق مبدأ المناسبة بين السياق ، وما يستدعيه حال المتلقي ، فللسياق أثر مهم في ضبط التواصل ، وتحقيق المنفعة من المتلقي وتجنب غضبه (واعلم أن المنفعة مع مُوافقة الحال ، وما يجبُ لكلّ مقام من المقال ؛ فإن كنتَ متكلماً، أو احتجتَ إلى عمل خطبة لبعض من تَصلُحُ له الخُطب، أو قصيدة لبعض ما يراد له القصيد ، فتخَطّ ألفاظ المتكلمين ، مثل الجسم والعرض ، والكون ، والتأليف، والجوهر، فإن ذلك هجنة) .[٣٥]

إن مراعاة حال المتلقي في المجتمع العربي القديم هو واجب بغية استرضائه لجلب خيره ، ودفع شره، لذلك يوظف المبدع تقنيات تداولية ترسيخاً للوظيفة الإفهامية التي تُعنى بها البلاغة العربية ، فالمقام مقيد بمراعاة الاحوال الاجتماعية التي يأتي على أساسها إنتاج النص . [٣٦] فالبليغ عند أبي هلال أن يكون(متخيّر اللفظ ،لا يكلّم سيّدَ الأمة بكلام الأمة ، ولا الملوكَ بكلام السوقة ، ويكون في قواه التصرف في كل طبقة)[٣٧]

فلا بد للمتكلم أن يراعي المقام الاجتماعي للمتلقين حفاظاً على ميثاق التواصل لتحقيق الفائدة ، والمنفعة (وإذا كان موضوع الكلام على الإفهام ، فالواجب أن تقسّم طبقات الكلام على طبقات الناس ،

فيخاطب السوقي بكلام السوقة ، والبدوي بكلام البدو، ولا يتجاوز به عمّا يعرفه إلى ما لا يعرفه ، فتذهب فائدة الكلام، وتنعدم منفعة الخطاب)[٣٨]

فالروابط بين المبدع، والمتلقي روابط قوية ووثيقة ، فالمقام ليس مادة لغوية منفصلة عن مقامها ، ولا عنصراً يقع خارج المقال، وينفصل عنه، فهذا الأمر يعني استحالة الفصل بين المقال والمقام ، فالمتكلم محكوم بمراعاة المتلقي، ومراعاة الغرض، والسياق الذي يرد فيه النص.[٣٩]

هوامش البحث

(١) تجديد المنهج في تقويم التراث ، د. طه عبد الرحمن : ٢٤٣

(٢) التداولية عند العلماء العرب ، مسعود صحراوي ، ٢٥

(٣) ينظر لسان العرب لابن منظور : مادة (دول)

(٤) ينظر : المقاربة التداولية ، فرانسواز أرمينكو: ٨ ، ٢٥.

(٥) ينظر : أصول الحوار وتجديد علم الكلام ، طه عبد الرحمان : ٢٨ .

(٦) نشأت التداولية على أصول معرفية متنوعة ،فأخذ مؤسسوها بطرف من كل أصل ، وبتواشج تلك الأصول ، وتضافرها انبنى المنهج التداولي النقدي وأطروحاته النظرية ، وأدواته الإجرائية ، ينظر لمعرفة نشأت المنهج التداولي وتطوره المؤلفات الآتية : آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ،د. محمود أحمد نحلة : ٩ـ ٥٣، وينظر التداولية عند علماء العرب : ١٤ ـ ٣٠ ، وينظر النظرية البراجماتية اللسانية (التداولية)، د. محمود عكاشة: ١٩ـ ٣٠، وينظرالتداولية والحجاج مداخل ونصوص ، صابر الحباشة :٩ـ ٣٠ ، وينظر في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم ، د. خليفة بو جادي : ٣٩ـ ٦٩، وينظر ما التداوليات، د. عبد السلام إسماعيلي علوي : ١٧.

(٧) ينظر استراتيجيات الخطاب ، مقاربة لغوية تداولية ، عبد الهادي بن ظافر : ٢٣ .

(٨) ينظر المقاربة التداولية ، فرانسواز أرمينكو : ١٣ ــ ١٤ .

(٩) ينظر النحو العربي من المصطلح الى المفاهيم تقريب توليدي أسلوبي وتداولي ، محمد سويرتي : ١٩٤.

(١٠) ينظر آفاق جديدة في االبحث اللغوي المعاصر ، د. محمود أحمد نحلة : ٥٢.

(١١) ينظر التداولية من اوستين الى غوفمان ، فليب بلانشيه : ١٠ .

(١٢) نفسه : ١٠

(١٣) نفسه : ١٠

(١٤) آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر : ١٤.

١٥ اللغة والخطاب ، عمر أوكَان : ٣٦

١٦ ينظر: معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة : ٢٢٩

١٧ ينظر : الحوار وخصائص التفاعل التواصلي دراسة تطبيقية في اللسانيات التداولية : ٢٤

١٨ ينظر: اللغة والخطاب : ٣٥

(١٩) ينظر التداولية اليوم علم جديد في التواصل : ٢٦٤

(٢٠) ينظر نظرية النص من بنية المعنى إلى سيميائية الدال ، د. حسين خمري : ١٨٤

(٢١) الأبعاد التداولية لبلاغة حازم من خلال منهاج البلغاء وسراج الأدباء (مشروع قراءة) ، د. مصطفى الغرافي : ٢٧١

(٢٢) بلاغة الخطاب وعلم النص ، د. صلاح فضل : ٢٦

(٢٣)) ينظر نظرية التلقي أصول وتطبيقات : ٤٢

(٢٤) عيار الشعر : ١٦

(٢٥) عيار الشعر : ٦

(٢٦) هذان المبدآن التداوليان أطلقتهما الباحثة روبين لاكوف في مقالتها (منطق التأدب)، ينظر اللسان والميزان أو التكوثرالعقلي ، طه عبد الرحمن : ٢٤٠

(٢٧) عيار الشعر : ٩١ـ ٩٥

(٢٨) عيار الشعر : ١٢٢

(٢٩) ينظر هذه الأمثلة التي أوردها ابن طبا طبا في عيار الشعر :١٢٢ ـ ١٢٤

(٣٠) نقد الشعر : ٦٥

(٣١) نفسه : ٨٢

(٣٢) نقد الشعر : ٨٢ ،

(٣٣) ينظر عمود الشعر في قراءة السنة الشعرية عند العرب : ٦٠

(٣٤) الصناعتين : ١٤١.

(٣٥) الصناعتين : ١٤١.

(٣٦) ينظر البلاغة والاتصال : ١٣١.

(٣٧) الصناعتين : ٢٥.

(٣٨) الصناعتين : ٣٥.

(٣٩) ينظر بلاغة الخطاب الإقناعي : ٣١٤.

المصادر والمراجع

ـ الأبعاد التداولية لبلاغة حازم من خلال منهاج البلغاء وسراج الأدباء (مشروع قراءة)، د. مصطفى الغرافي ، مجلة عالم الفكر ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت ، المجلد ٤٠ ، العدد ١، ٢٠١١.

ـ استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديد المتحدة ، بيروت لبنان، ط ١ ، ٢٠٠٤.

ـ أصول الحوار وتجديد علم الكلام ، طه عبد الرحمان ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ط٢، ٢٠٠٠.

ـ آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ، د . محمود أحمد نحلة ، دار المعرفة الجامعية ، مصر، ٢٠٠٢.

ـــــ بلاغة الخطاب الإقناعي ، نحو تصور نسقي لبلاغة الخطاب ، د. حسن المودن، دار كنوز المعرفية ، عمان ، الأردن ،ط١، ٢٠١٤.

ـــــ بلاغة الخطاب وعلم النص ، د. صلاح فضل ، عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ١٩٩٢.

ـــــ البلاغة والاتصال ، د. جميل عبد المجيد ، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة ، (د.ت).

ـ تجديد المنهج في تقويم التراث ، د. طه عبد الرحمن ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ط٢ ، ٢٠٠٥.

ـــــ التداولية اليوم علم جديد في التواصل ،آن روبول ، وجاك موشلار، ترجمة د. سيف الدين دغفوس ، د. محمد الشيباني ، المنظمة العربية للترجمة ، بيروت لبنان ، ط ١، ٢٠٠٣

ـ التداولية عند العلماء العرب ، دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي ، د. مسعود صحراوي ، دار الطليعة بيروت لبنان ، ط ١ ، ٢٠٠٥.

ـ التداولية من أوستن إلى غوفمان ، فليب بلانشيه ، ترجمة صابر الحباشة ، عبد الرزاق الجمايعي ، عالم الكتب الحديث ،أربد الأردن ،ط١ ، ٢٠١٢.

ـــــ التداولية والحِجاج مداخل ونصوص ، صابر الحباشة ، صفحات للدراسات والنشر ، سورية ، ط١ ، ٢٠٠٨ .

ـــــ عمود الشعر في قراءة السنة الشعرية عند العرب ، توفيق الزيدي ، الدار العربية للكتاب ، تونس ، ١٩٩٣ .

ـــــ عيار الشعر محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي (٣٢٢هـ) تحقيق د. طه الحاجري و د. محمد زغلول سلام ، المكتبة التجارية بالقاهرة ، ١٩٥٦ (د.ط)

ـــــ في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم ، د. خليفة بوجادي ، بيت الحكمة للنشر والتوزيع الجزائر ، ط ٢، ٢٠١٢.

ـــــ كتاب الصناعتين الكتابة والشعر أبو هلال العسكري (٣٩٥هـ) تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل ابراهيم ، دار الفكر العربي ، بيروت ،ط٢، ١٩٧١.

ـــــ لسان العرب لابن منظور جمال الدين بن مكرم الانصاري (٧١١هـ) المؤسسة المصرية العامة للتاليف والانباء والنشر (د.ت).

ـــــ اللسان والميزان أو التكوثر العقلي ، د. طه عبد الرحمن ، المركز الثقافي العربي ، بيروت لبنان ،ط ٣ ، ٢٠١٢.

ـ ما التداوليات، د. عبد السلام إسماعيلي علوي، ضمن كتاب التداولية علم استعمال اللغة ، إعداد وتقديم د. حافظ إسماعيلي علوي ، عالم الكتب الحديث،إربد الأردن،ط١ ، ٢٠١١.

ـــــ المقاربة التداولية ، فرانسواز أرمينكو، ترجمة د. سعيد علوش ، مركز الانماء القومي ، الرباط المغرب ، ١٩٨٧.

ـ النحو العربي من المصطلح الى المفاهيم تقريب توليدي أسلوبي وتداولي ، محمد سويرتي ، أفريقيا الشرق ، الدار البيضاء ، المغرب (د. ط) ٢٠٠٧ .

ـــ النظرية البراجماتية اللسانية (التداولية) ،د. محمود عكاشة ،مكتبة الآداب ، القاهرة ط١، ٢٠١٣.

ـــــ نظرية التلقي ، أصول وتطبيقات ، د. بشرى موسى صالح ، دار الشؤون الثقافية بغداد ، ط١ ، ١٩٩٩.

ـــ نظرية النص من بنية المعنى الى سيميائية الدال ، د. حسين خمري ، الدار العربية للعلوم ناشرون بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٧.

ـــــ نقد الشعر قدامة بن جعفر(٣٣٧) تحقيق كمال مصطفى، مكتبة الخانجي ، مصر ، ط٣ ، ١٩٧٨.